جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

وحدة الموضوع في الجوهر وعلاقة متبادلة في الوظيفة

الدكتور : عبدالله عبدالمحسن التركي

الرياض

1406 هـ - 1986 م

الفصل الأول

وحدة الموضوع في الجوهر وعلاقة متبادلة في الوظيفة ★

مقدمـــة :

أبدأ بمؤشرات ... من المقدر أن تعين على مسايرة مبكرة لسياق المحاضرة، وعلى صحبة مواكبة لمجراها ومرساها.

١ - أول هذه المؤشرات، نقطة من التجاوز ألا نتحدث عنها ابتداء، بل إنه لمن التناسب الموفق أن ننطلق منها، وأن نصدر عنها وهي : نقطة (المحيط المكاني) و (الوعاء الزماني) لهذه الندوة. فهما محيط ووعاء ترتبط بهما أصول الأمن، ومبادىء الاعلام ارتباط بداية وهداية.

مكانا : تنعقد الندوة في كنف بلد أقسم الله تعالى على أنه (البلد الأمين) وفي حمى حرم آمن جعله الله مثابة للناس وأمنا

زمانا : تنعقد الندوة ونحن نحيا في مناخ الحج، ونستقبل الأشهر الحرم التي هي أقدس فرصة زمنية للأمن على الدماء والأموال، والأعراض، وسائر الحرمات.

ومن هذا المكان، ارتفع صوت الخليل ابراهيم - عليه السلام - بالاعلام المهتدى، الداعي الى التوحيد والخير، حيث أمره ربه جل شأنه بأن يؤذن في الناس بالحج، ويعلمهم بمعالم الهدى.

٢ - ويتعلق المؤشر الثاني في الاستئذان بأن نتحدث في نطاق الصراحة والوضوح، ذلك أن الوضوح هو المنهج الاعلامي الصحيح في توصيل الأفكار والحقائق الى المستقبلين، ومن ناحية أخرى فإن امتنا قد تعبت كثيرا وطويلا من الغموض والعتمة والألغاز.

٣ - ويوميء المؤشر الثالث الى أن هذه المحاضرة ليست احتجاجا ضد شيء مجهول، وذلك لسبب بالغ البداهة وهو : أن (الفاعل

★ اعداد : **د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي** مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض - المملكة العربية السعودية.

معلوم) وأولو النهي لا يهدرون جهودهم، ولا يريقون عصارة أفكارهم في معركة ضد الأشباح والخيالات، ولكنهم يحددون مجال النقد ويعينون (الشيء المنتقد).

وهذه المحاضرة ليست (نواحا) على واقع سيء، ومن هنا تعمدنا أن نحرر كلماتنا من نزعة (النواح)، لاعتبارات عديدة. منها : أن النواح منهي عنه مبدئيا، وأن النواح لم يصلح حيا، ولم يعد ميتا، وأن النواح يجسد - في الغالب - عجزا ماديا عن التغيير، ويمثل تعويضا نفسيا وهميا عن مهمة (تقديم البديل) أو مهمة فتح الآفاق الجديدة.

٤ - والمؤشر الرابع هو : أن هذين الموضوعين - الأمن والاعلام - يلخصان (هموم البشرية) وجودا وفكرا.

ومن أجل ذلك، ولأنهما على هذا النحو من العظم والالحاح، ينبغي أن تقدم لهما أكثر الخدمات العلمية والفكرية عمقا ورصانة ورشدا.

وفي محاولة لاستخدام هذا المنهج، والالتزام به، جعلنا مداخل الموضوعين : تعريفات للأمن والاعلام، فالتعريف أول نقطة في التصور المنهجي للموضوع أو القضية.

ما الأمـــن ؟

من كلمة (أمن) ذات الحروف الثلاثة، انبثقت أسماء عقائد ومبادىء وقيم وأخلاق، فمنها انبثق : الايمان والأمانة والأمين والاستئمان. وهذه الشعب الأمنية - وإن اختلفت في صيغ الاشتقاق - فقد تجانست معنى ومحتوى، فالايمان يوفر لصاحبه الأمن من المخاوف في الدنيا والآخرة داخل النفس، وفي محيط البيئة، والأمانة وفاء بالذمم والعهود والمواثيق والشروط لكي تحس الأذراف جميعا بالأمن على الاتفاق أو التعاقد، والأمين الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وأسرارهم، واستأمن اليه دخل في أمانه.

وإن من أقوى الأدلة على تعظيم الاسلام لقيمة الأمن أن جعل

أهم عقائده وأصلها يحمل اسما أمنيا هو : الايمان.
ونلحظ ذلك أيضا في كلمة (الاسلام) المشتقة من كلمة (أسلم)
ولكن ما هي الحكمة في هذا الجعل والاتخاذ ؟
هي حكم ثرة .. لا حكمة واحدة.

الحكمة الأولى :

ان الأمن هو (الحاجة البشرية الأولى) والمطلب الدائم للانسان في بدائيته وحضارته في حله ومقامه، في وحدته واجتماعه.

ومنذ اللحظة الأولى أرادت الملائكة أن تطمئن على قضية الأمن هذه، وعلى أن وجود الانسان لن يكون اخلالا بالنظام الذي ينبغي أن يلتزم به الانسان كما التزمت به وحدات الكون الأخرى كافة. فقالت الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). والافساد في الأرض، وسفك الدم هما أعتى الجرائم قديما وحديثا.

وفي البدء حذر الله تعالى آدم – عليه السلام – من عدو يهدد مقومات أمنه في الجنة وهي : السعادة والاستقرار، والشبع، والكساء، والري والسكنى، وأعلمه بأن فقدان هذه المقومات سيجلب الشقاء (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها، فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.

الحكمة الثانيــة :

إن معنى الأمن في الاسلام لا ينحصر في الاجراءات الوقائية أو العقابية، فهو مفهوم مرتبط بالدينونة لله، وبالتصديق بآياته وكتبه ورسله، وهكذا يرقي الاسلام قيمة الأمن فيجعلها ضربا من التدين الصادق، ووفاء حقيقيا لمقتضى الايمان.

الحكمة الثالثــة :

إن الايمان – بمدلوله اللغوي والشرعي – لازم للنفس ومتعد للغير.

بالنسبة للنفس هو عمران باطني، وازدهار داخلي بنظام متماسك من فضائل الطمأنينة، والوداعة والسكينة والهدوء وراحة البال.

(وكيف أخاف ما اشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الظلم في هذه الآية بأنه (الشرك) ويتضح من هذا أن التوحيد أصل الايمان، وهو أصل الأمن بالتالي : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).

ويعضد هذا المعنى نص آخر محكم هو قوله تعالى : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) فتبديل الخوف أمنا مشروط بتجريد العقيدة والعبادة لله وحده لا شريك له.

ومن العمران الداخلي الذي يورثه الايمان لصاحبه :

أ – الاعتصام برصيد الايمان للتفوق على الظروف الأمنية الخطرة (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).

ب – السكينة التي تزيد الايمان، فترتفع نسبة الأمن (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم).

ج – صلاح البال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) ولقد ثبت أن القلق والتمزق عاملان نفسيان يؤزان المرء على الجريمة.

د - توديع المخاوف، والتحرر من وساوسها المزعجة المحطمة (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما).

لكن الايمان الحقيقي لا يوفر الأمن لصاحبه فحسب، إذ أنه من الصدق المنطقي والعملي أن تتم ترجمة الايمان في صورة عملية خارجية، توفر الأمن في البيئة الخارجية، لكي يتحد مضمون الصفة مع مضمون (الفعل) في وحدة أمنية متماسكة.

فالأمان، أو الأمن الذي أثمره الايمان في داخل النفس ينبغي أن يدعم بأمن خارجي هو اقامة حد القصاص (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى .. الآية). فالصفة الايمانية هي : يا أيها الذين آمنوا، والفعل الأمني هو : إقامة الحد على القتلة. ومثل ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون).

فصفة الايمان - يا أيها الذين آمنوا - تلزم أصحابها القيام بـ (فعل أمني) متمثل في ضرورة اتخاذ المعاونين وانتخاب البطانة من المؤمنين الصادقين أنفسهم حتى لا تقع أسرار الدولة، وخاصة أمنها في يد من يود الخبال والعنت للأمة.

ومثل ذلك : (يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) فالذي دخل في الأمن لكونه مؤمنا عليه أن يدخل أهله نفس المدخل محبة وحرصا وبرا.

ومثل ذلك : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ...) فكما أن صفة الايمان يجب أن تكون في يقظة على الدوام. فكذلك حالة الحذر الخارجي يجب أن تكون مشحوذة باستمرار، وحالة الاستنفار في أجهزة الأمن - يجب أن تكون قائمة باطراد جمعا بين صفة الايمان وفعل الأمن. ومثل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله ؟ قال :

الذي لا يأمن جاره بوائقه).

فهذا ربط منهجي وعملي بين الايمان والأمن، فإن ازعاج أمن الجيران - بالشر والأذى - دليل على تدني درجة الايمان في مصدر الشر والأذى وهذا المفهوم ينتظم الجيران الذين يفصل بينهم حائط أو طابق أو شارع والجيران الذين تفصل بينهم حدود دولية.

ومما يؤكد هذا الاستنباط أن نقيض الايمان - وهو الكفر - نقيض للأمن في الوقت نفسه داخل النفس وخارجها.

فالكفر خراب داخلي، ورعب وفزع (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا..).

وللكفر آثار ونتائج خارجية هي : الخراب وانفراط عقد الأمن، وتقويض مقوماته : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

إن الأكاذيب الاعلامية التي تغرق العالم - على مدى دقائق الليل والنهار - بالزور والبهتان، والارجاف والافك والافتراء، تصدر عن نفوس وعقليات فقدت الايمان بالله، فجاء إعلامها - من ثم - غير مؤتمن على الحقائق والمعلومات والأخبار : (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون).

ولئن كانت قصة البشرية هي قصة (الركض وراء الأمن) أمن الذات وأمن القبيلة، وأمن المجتمع والدولة والأمة. فإن مفهوم الأمن قد اتسع جدا في هذا العصر، وذلك في ضوء الحاجات الأمنية المركبة، وتراكم المشكلات المعقدة التي قاد اليها نسيج العلاقات الجديد على المستوى الوطني، وعلى المستوى الدولي كما قاد اليها التقدم الهائل في التقنيات، حيث وظفت علوم شتى في تطوير وسائل الجريمة وأساليبها تخطيطا وتنفيذا، فكان لا بد من نقلة كمية ونوعية في القوة التي تحفظ الأمن، وفي الأساليب التي تهيىء للناس بيئة آمنة مستقرة واعدة.

نخلص من ذلك الى أن الأمن هو : (التدابير الكفيلة بحفظ النظام - السائر على سنن الله - وضبط العلائق بين الناس على نحو عادل متوازن حتى لا يظلم أحد أحدا وحتى لا يبغي أحد على أحد ولكي ينخرط المواطنون جميعا في خدمة الأهداف المشتركة دون تثبيط أو ازعاج).

وبالفراغ من هذه النقطة يفد السؤال التالي :

ما الاعـــلام ؟

سنستعير تعريفا استراتيجيا. ثم نطبقه في مجال الاعلام.

فالاستراتيجية هي : (فن استخدام القوة للوصول الى أهداف السياسة[1]) ينتظم هذا التعريف ثلاثة عناصر هي :

أ - فن الاستخدام.

ب - القـــوة.

ج - الهـدف.

ويمكن ترجمة ذلك الى لغة الاعلام على النحو التالي : (الاعلام هو : فن استخدام قوة الأفكار - بالوسائل الاعلامية المختلفة - لخدمة أهداف الدولة والأمة).

لقد احتل الاعلام في عصرنا هذا مكانة بالغة القوة والاختراق والسطوع ولقد اكتسب هذه المكانة من معطيات شتى :

أولا: استفاد الاعلام - الى أقصى حد - من مجموعة من العلوم التجريبية مثل : الضوء، والصورة، والفضاء، والحركة، والطباعة، فاكتسب - من هنا - عوامل : السرعة، والاتصال الواسع المدى، والجمال.

ثانيا :استفاد الاعلام - الى أقصى حد - من العلوم الانسانية : علم النفس وعلم السياسة، وعلم الاجتماع، وعلم التربية وغير ذلك. وهذه الفائدة أهلته للدخول في حلبة الصراع الدولي في مجالات

---

١ - أندريه بوفر

عديدة، ومن خلال هذا الصراع تهيأ له النفوذ الواسع.

ثالثا: ضغوط الحياة الحديثة على الانسان المعاصر حملته على طلب (الترفيه) في مظانه ونظرا لتقدم الاعلام في هذا المجال فقد استطاع أن يقدم لطلاب الترفيه ما يريدون، فاكتسب هنالك أعرض قاعدة بشرية، في الدول الصناعية والدول النامية سواء.

رابعا:أتاح الانتاج الاعلامي الضخم في مجالات التلفاز والسينما والاذاعة فرصا واسعة للربح المادي، مما مكنه من مضارعة أي مجال استثماري آخر في العائد والنفوذ.
لقد وصف التلفزيون الأمريكي بأنه (أكبر بائع أمريكي) نظرا لطغيان الاعلان التجاري - المروج للسلع - على معظم ارساله.

وفي التقرير الثاني والثلاثين (للجنة الدولية لدراسة مشكلات الاعلام) نقرأ هذه الفقرة :

(ثبت بوضوح وجود صلة وثيقة بين الاعلام - ولا سيما الاذاعة والتلفاز والسينما وصناعة الترفيه برمتها - وبين الأعمال التجارية من حيث أن الاعلام أضحى جزءا من النشاط العادي للشركات الصناعية الكبرى، وخاصة الشركات غير الوطنية، وتهدف الأنشطة التجارية لهذه الشركات - أساسا - الى تحقيق الربح دون مراعاة للمعايير الثقافية والجمالية والتربوية وغيرها من القيم، وتهتدي في المقام الأول بمعايير الادارة الجيدة، وسياسة الأعمال الرابحة المدارة من المركز والموجهة وجهة الاحتكارات، ويعتبر وجود أسواق عالمية مفتوحة أمام هذه الاحتكارات العملاقة شرطا مسبقا يتيح لها تأكيد احتكارها على أوسع امبراطورية ممكنة).

هذه القدرة الهائلة لوسائل الاعلام، كان يمكن أن تكون أداة للاستقرار ومناخا للأمن باعتباره مطلبا حتى لأولئك الذين يسيئون استخدام وسائل الاعلام. بيد أن الواقع الاعلامي انحرف انحرافا كبيرا

بسبب : (الانحراف الفكري) الذي يجتاح العالم، وبسبب اخضاع المضمون الاعلامي للمضاربات التجارية بين المنتجين، وبسبب ضعف الاحساس بالمسؤولية نحو الكلمة التي هي أساس الاعلام وجوهره، وبسبب الجري غير العقلاني وراء أهواء الجماهير، والركض خلف رغباتها غير الرشيدة على حساب الحقائق العلمية، وهدي الدين والمصالح الحقيقية للناس أنفسهم.

نتيجة لذلك تلوث الجو الاعلامي - كما تتلوث المياه ويتلوث الهواء - بما يعل الصحة النفسية والفكرية للانسان.

ومن المفارقات غير المفهومة أن ميزانيات ضخمة رصدت ومؤسسات كاملة قامت ابتغاء حماية الانسان من تلوث المياه والهواء. على حين غابت هذه الجهود في مجال (التلوث الفكري).

وتزداد المفارقات حدة - الى درجة التناقض - حين يتعلق الأمر بالعلاقة بين الأمن والاعلام، إذ كيف يمكن توفير الأمن في جو إعلامي غير منضبط، بل في جو إعلامي يموج بالجريمة، ومغريها ومحرض عليها ؟

ان المنطلق العملي يرتب هذه القضية في النسق الآتي :

- للأفكار علاقة وثقى بالجريمة، لأن الجرائم هي مواليد الأفكار.
- والاعلام هو ناشر الأفكار، ومذيعها، ومروجها.
- اذن (فالأمن الفكري) هو قاعدة الأمن العام، وبما أن الاعلام هو مروج الأفكار فان التنسيق بين رجال الأمن ورجال الاعلام ضرورة ناجزة، ومطلب شديد الالحاح .. والا فان البديل لهذا التنسيق هو : أن يهدم رجال الاعلام ما يبنيه رجال الأمن، ولا عبرة لحسن النية هنا، لأن النتيجة هي كوارث أمنية، وعندئذ لا يصلح حسن النية مبررا لسوء الوسيلة، ولا لعوج البث والنشر.

إن خطورة الأفكار حقيقة لا يجوز الاختلاف حولها، لأنها فعلا حقيقة ملموسة ومشاهدة. ويوجد في العالم - اليوم - كمية من المتفجرات قدرت بأنها تعادل ١٥ طنا من مادة (ت.ن.ت) لكل ساكن

من سكان الكرة الأرضية.

من صنع هذا الجحيم ؟

إن وراء ذلك أفكارا شريرة تزيد عوامل تهديد الأمن، بدعوى المحافظة على الأمن. ان الانسان هو الذي يقتل وليس السيف، أو المدفع أو القنبلة باعتباره هو الضارب أو المطلق، أو المفجر، وباعتبار أن (ارادة الاجرام) صدرت عنه لا عن هذه الأدوات التي لا تعقل ولا تريد. وللقرآن العظيم هدي في ذلك، هدي في أن أصل الجرائم والانحرافات والكوارث أفكار تخريبية وتدميرية.

ومن الأمانة العلمية أن نقيم الدليل – الى درجة الاشباع على هذه النقطة حتى يحسم الجدل حولها، وتكون أصلا من أصول النشاط الاعلامي بمختلف أنواعه :

١ – الجريمة التي اقترفها ابليس، اعتمدت على (فكرة عنصرية) اذ قال وهو يبرر عصيانه لله تعالى (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وهذه الفكرة عبرت عن نفسها في موقف اعلامي وهو : القول.

والصواب ليس مع من يظن أن الأفكار تظل تصورا مجردا دون أن تتحول الى واقع مادي. لقد تحولت فكرة ابليس الى موقف اجرامي ثابت : **(قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين).**

(لعنه الله وقال لأتخذ من عبادك نصيبا مفروضا، ولأضلنهم ولأمنينهم، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله).

٢ – والجريمة الثانية – جريمة قابيل – بدأت انفعالا اجراميا تحول الى فكرة، وتحولت الفكرة الى أسلوب اعلامي هو القول، ثم تحول ذلك كله الى جريمة قتل : **(واتل عليهم نبأ ابني آدم اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال :**

لأقتلنك قال : إنما يتقبل الله من المتقين) وكانت النتيجة **(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله)**. ويستفاد من ذلك : الكف عن التساهل مع الأفكار المهددة بالقتل أو التي تكون مناخا للجريمة عبر وسائل الاعلام.

٣ - ويروي لنا «سيف بن عمر الضبي الأسدي. المتوفى سنة ٢٠٠ للهجرة» في كتابه «الفتنة ووقعة الجمل» كيف زلزل أمن المجتمع المسلم عن طريقة حركة فكرية اعلامية قادها عبد الله ابن سبأ.

يقول سيف بن عمر الضبي :

«كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء - أمه سوداء - فأسلم زمان عثمان. ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة. ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد من أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر. فاعتمر فيها فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع. ويكذب بأن محمدا يرجع وقد قال الله عز وجل : «**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد**» فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد. ثم قال : محد خاتم الأنبياء. وعلي خاتم الأوصياء ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله. وتناول أمر الأمة ثم قال إن عثمان أخذها بغير حقها. وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا في هذا الأمر فحركوه. وابدأوا بالطعن في أمرائكم. واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس. وإدعوهم الى هذا الأمر. فبعث دعاته. وكاتب من استفسد من الأمصار وكاتبوه حتى تناولوا بذلك المدينة. وأوسعوا الأرض اذاعة».

لقد ترتب على هذه الأفكار. ثم على الحركة الاعلامية الواسعة النطاق التي خدمت هذه الأفكار، ترتب على ذلك فتنة عاصفة طاحنة ضربت أمن الدولة الاسلامية، وأمن المجتمع المسلم في الصميم.

بل إن آثار هذه الحركة الفكرية الاعلامية امتدت الى يومنا هذا غلوا وتعصبا، وطعنا في الصحابة، وتوسيعا لنطاق الفتن، وتجديدا لمآسي سوداء.

فكيف يخمن المخمنون بعد ذلك ويقولون : كلا ليس للأفكار خطورة واقعية أو عملية ؟

٤ – والغاء عقوبة الاعدام، بدأت فكرة ربما زعم أصحابها أنها انسانية ثم تحولت الفكرة الى حملات إعلامية – تدعي الرفق الانساني كذلك – ثم صارت الحملات الاعلامية قانونا يحمي القتلة المجرمين، ويهدر حرمة الضحايا. وكانت العاقبة ارتفاع معدل جرائم القتل.

٥ – والجريمة الصهيونية الحديثة كيف بدأت ؟

لقد بدأت فكرة في كتاب، ومن المعلوم أن الكتاب وسيلة اعلامية مهمة أمس، واليوم وغدا.

فقد ألف هرتزل كتابا اسمه «الدولة اليهودية».

وكان هذا الكتاب «قاعدة» للمؤتمر الصهيوني الأول.

وكان المؤتمر «قاعدة» للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

وكان الكيان الصهيوني «قاعدة» لتهديد أمن الوطن العربي والاسلامي.

وليس هناك فارق زمني كبير بين نشر الكتاب، وبين صيرورة أفكاره العدوانية واقعا ماديا. فقد نشر الكتاب عام ١٨٩٦. وعقد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧.

٦ – إن القنابل والمسدسات، والاغتيالات، وخطف الطائرات هي المظهر المادي الخارجي للارهاب الدولي .. أما العمق الحقيقي

فهو الأفكار، والزاد الثقافي السقيم المبثوث في الكتب والنشرات والبرامج الاعلامية.

ان للفكر نفوذا ليس من العقل، ولا من المصلحة تجاهل آثاره القريبة والبعيدة، واذا كانت هناك جهود بشرية مكثفة لمكافحة الأمراض والأوبئة وتحصين الناس منها، واذا كانت هناك جهود مماثلة في مكافحة المخدرات فينبغي أن تبذل جهود فكرية قوية ودائبة لمكافحة الأفكار المميتة وتحصين الناس ضدها.

وهذا الجهد منوط برجال الاعلام ومرافقه في المقام الأول، بحكم عملهم الوثيق الصلة بالأفكار. والذين يرفضون عقد هذه المقارنة - بين الأفكار وجرائم المخدرات والارهاب - إنما سارعوا الى الرفض إثر نظرة عاجلة غير متعمقة .. إما حين ينظر المرء الى المشكلة في جذرها البعيد وبوعي لا ينخدع بالقداسة الوهمية للفكر المنحرف، فانه يصل الى اقتناع مستنير بجدوى هذه المقارنة. إن الاتفاق على مكافحة المخدرات - مثلا - يصلح قاعدة للتفاهم حول جذور المشكلة، كما يصلح منطلقا للاقتناع بأبعادها الفكرية.

يستنكر العالم الارهاب الدولي، ويتواصى بمقاومته ومنعه، لكن التواصي باحباط خطف الطائرة أو منع عملية احتجاز رهائن يظل في دائرة التعامل مع (شكل الظاهرة) أو عرضها العلني، في حين أن المنهج الحكيم أو العلاج الصحيح يقضي بالنفاذ الى جذر المشكلة وأصلها الغائر وهو : إن وراء الارهاب الدولي فلسفات اجتماعية وسياسية واقتصادية ومذهبية ونظريات فكرية حمراء وصفراء ... وخضراء أيضا.

إلا أنه ليس من الرشد، ولا من العلم ولا من الحرية أن يمنح الفكر الضال قداسة وهمية باسم الحرية أو التقدمية.

ولماذا لا نكون صرحاء أمناء فنقول - وبين أيدينا حشد هائل من الأدلة والقرائن والوقائع - : إن الجرائم التي تقع في الأرض -

صغرى أو كبرى – انما هي ترجمة مادية للأفكار والنظريات المعوجة. ولكن ما المقصود من ذلك ؟ هل المقصود منع الناس من التفكير. لا طبعا، فهذه مهمة لا يستطيعها البشر، لكن العجز عن منع الناس من التفكير، ليس معناه القدرة على تمكينهم من ترويج أفكارهم الفاسدة. اذ لا يجوز أن يتحول العجز عن المنع الى عبقرية مولعة بنشر الفكر المقوض لمقومات الأمن، وأصول الحياة للأمة.

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل).

فثمة فارق بين حرية التفكير المستتر، وبين مسؤولية التفكير الذي تحول الى كلمات، أي الى اعلام ثم الى عمل، أي الى خطط وبرامج ومواقف وواقع مادي، فهذا النوع الأخير من التفكير يمس آخرين، ويؤثر في المجتمع، وبهذه الصفة يتجاوز حدود الحرية الشخصية لحركة الذهن الى الاسهام في صياغة حاضر الأمة، والمشاركة في توجيه مصائرها.

واذا كان تحمل الضرر الخاص – ولو أدى الى تنازلات عن الحقوق الشخصية – واجبا لازما في سبيل دفع الضرر العام، فإن التضحية بالأوهام في سبيل المصالح العليا للأمة أكثر وجوبا، وألزم نفاذا، فحق الأمة هو الغالب وهو الراجح.

قد ينشيء أحد الأفراد مؤسسة للانتاج الاعلامي – إذاعي وتلفازي وسينمائي – وقد يعلل ذلك بسببين : سبب أن لديه أفكارا يريد تجسيدها في مجال الاعلام، وسبب أنه يريد الكسب والربح.

وقد ينشيء فرد آخر مؤسسة صحفية لنفس الأسباب.

وهناك كاتب قصة نشأ في جو غير صحي من الناحية الفكرية والثقافية وطال عليه الأمد وهو حبيس هذا الجو الذي اكتنفته عوامل غير أمنية بالمعنى الفكري والمعنى المادي، بل زاد على ذلك بأن تبنى فلسفة معينة تخدم قيم وأهداف ومصالح طرف آخر معاد للأمة.

فهل تترك صناعة الرأي العام، ومسألة الزاد الفكري والثقافي - المقدم للشعوب - لهؤلاء الناس ؟ وهل يمكن - في هذه الحالة - الاستفادة من تجربة مريرة قاصمة تعيشها بلدان سارت في نفس الطريق حتى أصبح الانتاج الاعلامي في جملته محرضا على الجريمة، ومنشأ لها وحتى أصبحت المؤسسات الاعلامية الاحتكارية تضحي بالمصلحة القومية لتلك البلدان من أجل حفنة أو من أجل أقلية مسيطرة على وسائل الاعلام.

قد يقال : أن المنتج، وصاحب المؤسسة الصحفية وكاتب القصة يقدرون المصلحة ويلتزمون - تلقائيا - بالخط السليم.

سنعرض عن ضرب الأمثال غير المريحة، وننقل السياق الى مجال المعايير الصحيحة المعتمدة التي تشكل التصور الصحيح للمسؤولية الأمنية للمرافق الاعلامية فهذا المنهج ألصق بالايجابية وأقرب الى تقرير القواعد.

مسؤولية المرافق الاعلامية :

إن المرافق الاعلامية مسؤولة - باديء ذي بدء - عن حماية عقيدة الأمة، وتوفير السلامة الفكرية لأصولها وفروعها في كل ما ينشر في الصحف والكتب، وكل ما يبث في الاذاعة وكل ما يعرض في التلفاز والسينما والمسرح فإن العقيدة هي أوثق عرى الأمن فاذا نقضت نقض الأمن كله.

إن القتل جريمة كبيرة، ولكن الفتنة في الدين جريمة أكبر وأشد (والفتنة أكبر من القتل) (والفتنة أشد من القتل)، ولهذا دمدم الاسلام على جريمة الردة، فالردة هي اعلام مجاهر بالكفر والالحاد منكر - علنا - لمعلوم من الدين بالضرورة.

وبطبيعة الحال لا نتحدث الآن عن (العقاب الجنائي) في الموضوع فهذا مجال له قضاؤه وله اجراءاته، وله سلطته التنفيذية

وإنما نتحدث عن الجانب الفكري الاعلامي من القضية. الردة هي الفوضى الفكرية، والزيغ الاعلامي، والفتنة في الدين، وهذا التصور يحدد مسؤولية المرافق الاعلامية تجاه العقيدة فيستقيم بذلك مفهوم الحرية التي هي عند كثير من الأمم تحرر من الخضوع لله، وتخلص من ضوابط الدين ومقاييسه، وهو تحرر وهمي يوقع أصحابه - في اللحظة ذاتها - في الخضوع لكل شيء غير الله تعالى، بينما الحرية في الاسلام هي : التحرر من كل شيء في سبيل اخلاص العبودية لله، وبذا يخرج المرتد من مفهوم الحرية الاسلامية.

والمرافق الاعلامية مسؤولة عن (الوئام الاجتماعي) خاصة بعد أن تسربت الى الوطن العربي أفكار الحقد الطبقي والصراع الطبقي، وبعد أن اصبحت هذه المنطقة مسرحا لصراعات اجتماعية وثقافية ومذهبية جلبت من الخارج.

واذا كان (الوئام الاجتماعي) مقوما أمنيا مهما، فان دفعه الى دوامة الصراع الممزق لا تفسير له سوى نسف ركائز الامن، وهذه جناية تصل الى درجة التواطؤ مع العدو الذي يخطط ويعمل على تفريق ذات البين وتأجيج نيران الصراع لكي ينشغل العرب بأنفسهم ولا يستطيعون مواجهة أطماعه وهم على هذه الحال.

واليقظة الاعلامية الرشيدة تقتضي العدول أو التخلي الحازم عن شعارات - روجها الاعلام نفسه - من شأنها أن تضيف وقودا الى آتون الصراع مثل :

★ الصراع بين الأجيال.
★ الصراع بين المرأة والرجل.
★ الصراع بين القديم والجديد.
★ الصراع بين العلم والدين.

لقد قال عدو هالك - هو موشي ديان - : لقد فوضنا (جنرال اليأس) لكي يتولى هزيمة العرب. ونحن نقول : أن هناك (جنرال

آخر) سلط علينا وهو جنرال الصراع.

ويندرج في هذا مسؤولية الاعلام ازاء (وحدة الأمة) وذلك بتنمية كل فكرة، وكل شعار وكل كلمة وكل تيار يدعو الى وحدة الأمة وفق أصولها الصحيحة، من جانب آخر : مقاومة كل فكرة وكل شعار يدعو الى الشتات ويبقي على التمزق، وإلا فان الاعلام يكون قد نصب نفسه (جنرالا) للفرقة. والمرافق الاعلامية مسؤولة عن تطهير أجهزة البث والنشر والعرض فيها من كل ما يوحي بالجريمة، أو يشجع عليها أو ينبه غريزة العدوان اليها.

لقد ثبت أن العنف التمثيلي - في اجهزة الاعلام - يتحول الى عنف حقيقي مجسد ومقترف للجرائم كلها : جريمة السرقة والسطو، وجريمة التخريب والتفجير، وجريمة تعاطي المخدرات والمتاجرة بها، وجريمة الاغتيال، وجريمة الاغتصاب، وجريمة التهديد والابتزاز. ورجل الاعلام يستطيع أن يخفف أعباء رجل الأمن عن طريق لجم جهازه الاعلامي وكفه عن عرض الموحيات بالجريمة كما يستطيع أن يضاعف متاعب رجل الأمن عن طريق تحويل أجهزة الاعلام الى (عارضات جرائم).

وما يتصل بالايحاء بالجريمة : تركيز الضوء الاعلامي على الشخصيات التي وصلت الى الغنى بسرعة، بوسيلة الكسب غير المشروع والشخصيات التي تحمل فكرا اجراميا ملفوفا في شعارات خلابة. وهي مسؤولة عن كبح التيار الذي يعمد الى تجديد المشكلات والأحن القديمة - في شكل أحياء للتراث - ابتغاء خدمة أهداف سياسية، فقد لوحظ أن مسلسلات بعينها تشوه صورة عهود بني أمية - مثلا - وتقدمها في اطار قاتم صنعه جورجي زيدان ليخدم به اتجاهه العقدي، ونقمته التاريخية.

والخطورة الأمنية تتضاعف اذا أدركنا أن هذه المسلسلات توظف سياسيا ومذهبيا في خدمة أنظمة أخذت على نفسها نبش الماضي، ومحاكمة أهل السنة في شخوص بني أمية.

وبعد : فاذا كانت مسؤولية المرافق الاعلامية هي مكافحة الجريمة في طورها الفكري فإن مسؤولية أجهزة الأمن هي مكافحة الجريمة في طورها المادي، وهذا التلازم بين المجالين ينشىء أوسع الآفاق للتعاون الوثيق على تعزيز الوحدة الموضوعية، وتبادل العلاقة الوظيفية.